صفحات مطوية : التجسس ومكافحته

في اثناء الحرب الكبرى

يعلم القرّاء ان الحرب الكبرى امتازت عن جميع الحروب التي سبقتها بعدّة امور . منها وفرة المتحاربين واتساع الميادين والساحات وتنوّع المعارك والاسلحة وكثرة عدد القتلى والجرحى . فإنّ الجيوش التي خاضت غمارها لم يقلّ عددها عن خمسين مليوناً . ولم تنحصر معاركها في ما نشب منها في البرّ بل امتدّتهُ الى مواقع الاساطيل الكبرى في عرض البحار ومكافحات اسراب الطيارات في اعالي الجوّ وغارات الغوّاصات في أعماق اللجج اي انها ثارت في الارض والهواء وعلى الماء وتحت سطح الماء . واستخدموا فيها من العدد والاسلحة كلّ ما استنبطهُ العلم واخترعهُ العقل البشري للتعجيل في التكيل والتقتيل وتعميم التخريب والتدمير . وبلغ فيها عدد القتلى عشرة ملايين وأربى عدد الجرحى على عشرين مليوناً

ولكن قد لا يخطر ببال القرّاء انها امتازت ايضاً على الخصوص بالتجسس الذي اتسع فيها نطاقهُ وامتدّ رواقهُ واستوفى المتحاربون شروط تنسيقهِ وتنظيمهِ واستكملوا اسباب إحكامهِ وإتقانهِ . فبالتجسّس توسّل كلّ فريق الى تسقط اخبار الفريق الآخر والوقوف على ما خفي من حركاتهِ وسكناتهِ وعليهِ عوّل في معظم خطط الهجوم وطرق الدفاع . وبالتجسّس تذرّع كلّ منها الى ترصّد جواسيس عدوّهِ والتفرّغ لاحباط مساعيهم واتّقاء شرورهم . وهكذا كان عند كلّ فريق ادارة شحنة (بوليس) سرية لتتشمّم أنباء الفريق الآخر وإدارة اخرى لمناهضة جواسيس العدوّ وقطع دابرهم

وفي أثناء هذه الحرب كانت اسبانيا ، علاوة على هولندا وسويسرا ، محطّ رحال جواسيس الحلفاء وقبلة انظار جواسيس المانيا والنمسا . ومن جميع السفارات والقنصليات في مدريد ، ولاسيما من مكاتب الملحقين العسكريين وشجت اعراق الاشراك المنصوبة للتجسّس وانتشرت الشباك الخفاة للرصد والاستطلاع ، ممتدّة الى جميع الفنادق الكبرى في مدريد وغيرها من امهات المدن ومتفرّعة حتى الى احقر مساكن الفوضويين الاسبانيين . وهذه المصايد المحكمة الوضع أُلقيَت ايضاً حول الملك الفونس الثالث عشر الذي اعترتهُ دهشة عظيمة عندما علم بعد الحرب أنهُ كان أكبر غرض وضعتهُ المانيا وبريطانيا العظمى

وفرنسا نصب اعينهنَّ في تدابيرهنَّ السرية ومساعيهنَّ الخفية

وكانت دون الحلفاء من جهة ودولتا المانيا والنمسا من جهة اخرى تهتم اشد اهتمام لتعلم هل تبقى اسبانيا لازمة جانب الحياد ؟ وفي دولة حكومتها ملكية كاسبانيا كان الملك نفسهُ اقدر الناس على الجواب عن هذا السؤال . على ان خفاء هذا الامر على الدول المتحاربة كان اهم ما عنيت اسبانيا به واعتمدت في سياستها عليه . وفي الوقت نفسه كانت كل من فرنسا وانكلترة والمانيا تتذرع بكل ما عندها من وسائل لتستنبط الاخبار وهتك الاستار عن الاسرار للوقوف على هذا الامر الخفي واستخدامه في سبيل مصلحتها

ومع كل ما توسلت به فرنسا من الوسائط الفعّالة لنشر دعوتها في مدريد واجتذاب قلوب الاسبانيين اليها ظلَّ موقفها من هذا القبيل دون موقف عدوتها المانيا . وكان من رأي الشعب الاسباني ان التفاهم او الاتفاق بين اسبانيا نصيرة الكاثوليك وفرنسا عدوتهم مما يصعب تحققهُ على رغم ما بينهما من صلات القربى الجنسية والادبية والروحية . ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب بعث به الدوق دي لاتور الاسباني الى المسيو جورج لويس سفير فرنسا في بترو غراد شهر سبتمبر ١٩١٥ قال فيه : — « ان الدوائر ذات الشأن والمكانة في اسبانيا هي مع المانيا وان لم تكن ضدَّ فرنسا . وانصار المانيا في اسبانيا هم النساء والكونة وميل النساء الى المانيا يفوق كل ميل آخر لان الملكة [1] ماريا كرستينا ام الملك الفونس الثالث عشر من اصل نمسوي ومؤاساتها للمانيا والنمسا اشهر من ان تذكر واعظم من ان توصف واكراماً لها ترى جميع الاسبانيين ضلعهم مع الالمانيين »

ولكننا من جهة اخرى نرى ان الملك الفونس من كبار المولعين بالاسفار والمعجبين بالرياضة البدنية على اختلاف انواعها . وهذه الحقيقة لم تكن خافية على المانيا . لان بلاسكو ايبانز عدو الملك الاشد كان قد سبق فاعلنها في كتابه « كشف القناع عن الفونس الثالث عشر » ومنهُ يتضح ان الملك الفونس كان يكثر التردد الى باريس . فيأتيها متنكراً ويقضي فيها ليلاً ما شاء من الاندية والمجالس والمطاعم والمشارب على اختلافها في الرفعة والضعة وكان الامير لاتيور سفير المانيا في مدريد عالماً بنزاع الملك وشهواته . وبناء على طلبه بعثت اليه الحكومة الالمانية الهركرون ليكون ملحقاً عسكريًّا في سفارته وكان هذا الرجل ثقفاً لقفاً [2] وعلى اكبر جانب من جمال الطلعة واناقة الملبس وحسن التناول وشدة الظرف والكياسة فوجد نعمة في عيني الملك وصار اكبر المقربين اليه

وهذا الملحق العسكري كان منشأ النكبة التي اودت بحياة ماتا هاري الجاسوسة الحسناء

(١) توفيت في ٦ فبراير الماضي عن احدى وسبعين سنة (٢) خفيفاً حاذقاً

التي كان اسمها الحقيقي « مرغريت جرترويد زلا » . وهي هولندية المولد ومطلقة رجل يدعى ماك ليود . وهذه الراقصة الغريبة الاطوار كانت معروفة عند إدارة الشحنة (البوليس) السرية الالمانية برقم « ه ٢١ » وقد حُكِمَ عليها بالموت لارتكابها جريمة التجسس وجرى تنفيذ الحكم باطلاق الرصاص في فانسين قرب باريس . فلما كانت في باريس سنة ١٩١٧ بدا منها ما راب ادارة مكافحة التجسس فحاولت التوصل ودرء الشبهة بأن عرضت على الحكومة الفرنسية الانتظام في سلك ادارة المنابآت (المخابرات) لكنهم رفضوا طلبها لعدم ثقتهم بها. وبسعة الحيلة وفرط الدهاء تمكنت من مغادرة فرنسا والذهاب الى لندن حيث لقيت السر باسيل تمبسن الذي كان حينئذ رئيس قلم البحث الجنائي في ادارة سكوتلند يارد . فاستنطقها استنطاقاً مدققاً اظهرت فيه ذكاء خارقاً وبراعة نادرة المثال وحملته على ان يعلن كونها جاسوسة تسترق الاخبار لفرنسا لا لالمانيا . ولما أُذن لها في السفر الى اسبانيا قصدت مدريد غير عالمة ان جاسوساً فرنسيًّا يتعقبها ويترصدها وفي مدريد نزلت في اضخم فندق وما عتمت ان اتصلت بالهركون الملحق العسكري الالماني فتصاحبا وتصادقا . واوعز اليها ان تسعى في نصب حبالة مكرها واغوائها حول الملحق العسكري الفرنسي الذي اتفق انه كان نازلاً معها في الفندق نفسه . ولكن سعيها لم يقترن بنجاح يستحق الذكر لان الملحق الفرنسي تنبه لها باندار سابق فلم يسهل اخذه على غرة . واتاحها الهركون على سعيها بقرطي جمان غالي الثمن . لكن ما تاهاري لم تأبه للحلى والجواهر والحت في طلب مبلغ كبير من النقود . ولما رأت ان خدمتها في مدريد كجاسوسة لم تأت بالفائدة المرتجاة عقدت عزمها على الرجوع الى باريس . فبعث الهركون برسالة لاسلكية الى مدير المنابآت الالمانية في امستردام لكي يحول مبلغ ثلثين الف فرنك الى الجاسوسة رقم « ه ٢١ » بواسطة السفارة الهولندية في باريس . وهذه الرسالة تلقفتها ادارة اللاسلكي في محطة برج ايفل ومنها عرفت الحكومة الفرنسية ان الجاسوسة « ه ٢١ » هي ماتاهاري فلم تبطئ ان اعتقلتها في الفندق بعد ما قبضت المبلغ المرسل اليها واودعتها سجن سان لازار حيث ألقيت قبلاً مدام ستينهيل ومدام كايو . فحكم عليها المجلس العسكري بالموت كجاسوسة وتم تنفيذ الحكم باطلاق الرصاص في حصن فانسين الساعة السادسة من صباح اليوم الخامس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٩١٧

وكانت ادارة الشرطة السرية البريطانية قد وقفت بالتفصيل على الصداقة المحكمة بين ملك اسبانيا والملحق العسكري الالماني . وعن هذه الصداقة شاعت عدة روايات في وزارة الخارجية تؤيد صحة حصول المانيا على خبر وسيلة تضمن لها تناول ما شاءت من الانباء

السرية والاخبار الخفية وقضت الضرورة بوجوب وضع حدٍّ لهذا الامر بأية طريقة كانت . ولما كانت الملكة إيناء زوجة الملك الفونس من أسرة باتنبرغ وشديدة المؤاساة لانكلترة — ارتأت وزارة الخارجية الانكليزية ان تستعين بسلطة هذه الملكة على مناهضة الملحق العسكري الالماني واستئصال شأفة الحظوة التي نالها في قصر ملك اسبانيا . ولإدراك هذا الغرض اوفدت دوق وستمنستر الذي لهُ عقارات كثيرة في ولاية بلك وكان بعضها مجاوراً لضياع الملك الفونس . وهو علاوة على ذلك من اصهر لاعبي البولو[1] المولع بها الملك الفونس وكثيراً ما لعبها مع دوق وستمنستر

وبينما كان الملحق العسكري الالماني يتوسَّل بالمآدب والمراقص الى ترويج سعاياته ولشر شباك مكايده كان الدوق البريطاني يستخدم الرياضة البدنية لتوثيق عرى الصداقة والمودَّة . وقد يودّ القارئ ان يقف على ما كانت ادارة التجسُّس البريطانية في اسبانيا، ومنها كان دوق وستمنستر ، تكتبهُ في تقاريرها المرسلة الى وزارة الخارجية في لندن . قال الكبتن توهي في كتابه عن « التجسُّس » ما ترجمتهُ : — « اولاً — إنَّ الملك مؤاس للحلفاء من صميم فؤاده لكنهُ محاط بحاشية شديدة الحول وضلعها مع المانيا وينقاد الى مشورة اركان حرب قصارى مناهم السعي في انتزاع المغرب الاقصى من فرنسا . ثانياً :— الملكة كرستينا ، ام الملك الفونس ، نمسوية الاصل فتقيم الدنيا وتقعدها في سبيل معونة سليل آل هابسبورغ الجالس على عرش الامبراطورية الكاثوليكية وهي بلا ريب صلة التقرُّب ورابطة المفاوضة بين ڤينا والڤاتيكان . وهذا ، اي الڤاتيكان ، اكبر معين لها في اسبانيا . ثالثاً : — الملك كثير الكلام . ويخشى ان الانباء التي تسرّ الى ملحقي الحلفاء البحريين والعسكريين تبلغ مسامع الاعداء . وقد بعثت حكومة المانيا الى مدريد ملحقاً عسكريًّا هو آية في الظرف والكياسة وسلامة الذوق وحسن التناول . والملك ملازم لهُ وقلما يفارقهُ . رابعاً : — يظهر ان مشكلة الغوّاصات خطيرة جدًّا . فضباط الغواصات الالمانية يفعلون ما يشاءون في مياه اسبانيا وموانيها »

على ان ترويج الدعوة لمحبة فرنسا وادارة المخابرات (الفرنسية كانا جاريين على ما يرام من النشاط والإحكام . وفي سنة ١٩١٦ ، حين كانت المعركة حول فردون ناشبة بما لا مزيد عليه من الشدة والاحتدام وكان موقف فرنسا على غير ما يرام اشتدَّ اهتمام الفرنسيين بمسألة حياد اسبانيا وعدُّوها اخطر المسائل شأناً وخافوا ان تنتهز اسبانيا فرصة ارتباكهم وتجدّد مطالبها القديمة من جهة ما تدعيه من الحقوق في المغرب

(١) ضرب من لعب الكرة يأتيه اللاعبون وهم على ظهور الخيل